٢٧٤

ليلى الأخيليــة
شــاعرة الحب والفخــر..

محمد عيد الخربوطلي *

من المعلوم أن دور المرأة العربية لم يبدأ في زمننا الراهن، على مستوى الحياة وعلى مستوى الإبداع الأدبي، بل ترجع هذه البداية إلى العصر الجاهلي نفسه، وعلى الخصوص نشاطها الإبداعي، ولما كان الشعر في التراث العربي عامة هو أبرز تجليات الإبداع الأدبي وأهمها، أحببت أن أكتب عن شاعرة تعد من عمالقة الشعر العربي في العصر الإسلامي الأول، وإن لشعر النساء في ذلك العصر أهمية كبيرة، خاصة إذا عرفنا أنه كان للمرأة دور في صنع القرار، إنها ليلى الأخيلية! فمن تكون؟ وما قصتها؟ وما سبب شهرتها..؟

---

* باحث سوري.

العمل الفني الفنان رشيد شمة.

ولادتها ونشأتها:

ليلى الأخيلية بنــت عبد الله بن الرحال ابن شداد من قبائل بني ربيعة بن عامر، وهو بيت عريق بشــهرته في الشــجاعة والشرف والشعر والأدب، ولدت سنة (٢٥هـ) في نجد، رضــعت من شجاعة آبائها ومجدهم، فأحبت قول الشعر مثلهم في الفخار، فهي القائلة:

نحنُ الأخـايـلُ لا يـزالُ غلامُنا
حتى يَدِبَّ على العصى مَذكورا
تبكي السيوفُ إذا فقدنَ أكفَّنا
جَـزَعـاً وتعلمنا الـرِّفـاقُ بُحورا

وهكــذا نشــأت ليلى شــاعرة فصــيحة مقدمة بين شعراء وشاعرات العصر الأموي، ومع فصاحة شــعرها وبلاغته كانت حافظة لأنساب العرب وأيامهم وأشعارهم، وقد أثرت بها بيئتها كثيراً حيث هناك جمال الصحراء وروعتها وصــفاؤها وهدوءها، والصــحراء مغذيــة للعواطــف موقظة للمشــاعر ملهبة للأحاسيس، هذه الشــاعرة لها قصة طويلة ممتعة مع توبة بن الحميّر، فكيف بدأت هذه القصة؟

ليلة وتوبة:

في إحدى الغزوات خرجت ليلى مع نساء قبيلتها لاســتقبال أبطال قومها وفرســانهم وكانت مســفرة عن وجههــا، فلاحظها فتىً اســمه توبة ونســبه مشرف كنسبها، فأعجب بجمالهــا بعدما التقــت عيناهما صــدفة، فخفــق قلبه وهام بها وجُنَّ بحبها، وكان توبة فارساً وشاعراً وقد ولد قبلها بخمس سنوات، فنظم في حبها فرائد القصائد وعيون الشعر واســتعذب في حبهــا العذاب، فجاء شــعره جميلاً متألقاً على صفحة التاريخ..

وكما أبــاح لها بحبه، أباحــت له بحبها، فســعد بذلــك، لكنــه تفاجأ برفضــ أهلها له بعدمــا جمع أشــراف قومــه وذهب بهم لخطبتهــا، وكان ســبب رفضــهم لــه لقوله الشعر فيها، فكان بوحه بحبه لها شعراً سبب حرمانــه منها، ومن شــدّة تعلقــه بها حفَّظ صديقاً له بيتاً من الشعر وطلب منه أن يقف أمام مُقامها ويتلوه، ففعل ذلك قائلاً:

عفا الله عنها هل أبيـتَنَّ ليلةً
من الدهر لا يَسري إليَّ خيالُها

فلما سمعت ذلك القول قالت:

وعنـه عفـا ربـي وأحسـنَ حاله
عـزيـزٌ علينا حـاجَـةٌ لا يَـنـالُها

وزوجها أبوها من سوار بن أوفى القشيري وكان شــاعراً، وكان يعلم بقصــتها مع توبة، فاشــتدت غيرتُه عليها حتــى منعها من رؤية أهلهــا، وعاشــت ليلى معه كالســجينة، لكن عواطفها كانت أسيرةَ الحبيب الأول توبة.



حال توبة:

كانت نار الحب لتهدأ في قلب توبة، فصار يتردد على قومها يتذكر حبها ويُعطي شجونه مداها ليرتوي من ذكرى ليلى، ولكثرة ترداده على قومها شكوه إلى والي المدينة مروان بن الحكم فنبهه إلى ذلك، ولما لم يمتنع أباح الوالي دمَه إن وجدوه يتردد عليهم، فماذا يفعل العاشق الولهان الذي ذاب صبابة ومرض وجداً لحرمانه ممن يعشق؟ هام على وجهه في الصحراء ناظماً شعراً باكياً لحاله، يرسله في الصحراء علَّها تجاوبه، أو لعل أحداً يسمعه فيرحمه، وسطر له التاريخ أروع الأشعار وألذها وأرقها في الغزل، ومن ذلك قوله:

قالت مخافةَ بيننا وبكت له
فالبينُ مبعوثٌ على المتخوِّفِ
لو مات شيءٌ من مخافةِ فرقة
لأماتني للبينِ طولُ تخوُّفِ
ملأ الهوى قلبي وضقتُ بحمله
حتى نطقتُ به بغير تكلُّفِ

وصادف أن اجتمع بها بعد زواجها فطلب منها أن يقبل يدها فقالت له:

وذي حاجة قلنا له لا تبح بها
فليس إليها ما حَييتَ سبيلُ
لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه
وأنت لأخرى صاحبٌ وخليلُ

فلم تطله، ولم تسمح له بتقبيل يدها لأنها زوجة لغيره، أما قلبها فليس لها عليه سلطان.

مقتل توبة وحزنها عليه:

قتله غدراً بنو عوف بن عقيل لثأر قديم من ظهره، فلما بلغها مقتله بكت مراً، وخلعت زينتها حزناً، ولم تتزين حتى وفاتها، وفتحت بابها فأقبل الناس يعزونها فيه، هذا الحادث المفجع لها القاتل لقلبها المدمر لحبها فجَّر ينابيع الشعر في نفسها ومما قالته فيه:

لتبكِ العذارى من خفاجةَ كُلِّها
إلى الحَوْل صَيْفاً دائبات ومَربعا
على ناشئ نال المكارمَ كُلَّها
وما انفكَّ حتى استفرغ المجدَ أجمعا

وقالت ترثيه:

يا عينُ بَكِّي بدمع دائم السَّجْم
وابكي لتوبةَ عندَ الرَّوع والبُهْم
على فتىً من بني سَعْد فُجِعْتُ به
ماذا أُجِنَّ به في الحُفْرة الرُّجُم
مِن كُلِّ صافيةٍ صِرْفٍ وقافيةٍ
مثل السِّيان وأمرٍ غيرِ مُقْتَسم
ومَصْدَرٍ حين يُعيي القومَ مصدرُهم
وجَفْنَةٍ عندَ نَحْسِ الكوكبِ الشَّئم

وقالت:

كم هاتف بك من باك وباكية
يا توبَ للضيف إذْ تُدعى وللجار
وتوبُ للخصم إن جاروا وإن عدلوا
وبدلوا الأمر نقضا بعد إمرار
إن يُصدروا الأمر تطلقه موارده
أو يوردوا الأمرَ تحلله بإصدار

وقالت تصف توبة وتعدد مزاياه الكاملة وتمدح شجاعته وكرمه:

فتىً لم يزل يزداد خيرا لدن مشى
إلى أن علاه الشيبُ فوق المسايح
تراه إذا ما الموتُ حلَّ بورده
ضَروباً على أقرانه بالصفائح
شُجاعٍ لدى الهيجاء ثبتٌ مشايح
إذا انحاز عن أقرانه كل سابح
فماشىَ حميداً لا ذميماً فعاله
وصولها لقرباه يرى غير كالح

وعلمت ليلى أن ابن عم توبة كان معه أثناء مقتله، ولكنه تخلى عنه ولم يمنع عنه القتل، فقالت:

فلا وأبيك يا ابنَ أبي عُقَيْل
تبلُّكَ بعدَها فينا بَلالِ
فلو أسقيه لخلاكَ ذمٌّ
وفارقك ابن عمِّكَ غيرَ قالِ

وعلمت أن رفيقه قابض هرب عن توبة عندما رأى قاتليه يهجمون عليه فقالت تعيره بذلك:

ولما أنْ رأيتَ الخيلَ قُبْلا
تُباري بالخدود شَبا العَوالي
صرمتَ حباله وصددْتَ عنه
بعظمِ الساقِ ركضاً غيرَ آلِ

على رَبِدِ القوائمِ أعوجيٍّ
شديدِ الأسرِ مُنْكَمشِ التَّوالي

وعادت ليلى ترثي توبة وتعدد مزاياه فتقول:

لنعمَ الفتى يا توبَ كنتَ ولم تكن
لتسبقَ يوماً كنتَ منهُ تُوائِلُ
ونعمَ الفتى يا توبَ كنتَ إذا التقى
صدورَ العوالي واستشألَ الأسافلُ
ونعم الفتى يا توبَ جاراً وصاحباً
ونعم الفتى يا توب حين تُفاضَلُ
ونعم الفتى يا توب كنتَ لخائف
أتاك لكي يُحمى ونِعم المُنازِلُ
أبى لكَ ذَمُّ الناسِ يا توبَ إنما
لقيتَ حِمامَ الموتِ والموتُ عاجلُ
ولا يُبْعِدَنْكَ اللّه يا توبَ إنما
كذاكِ المنايا عاجِلاتٌ وآجِلُ
ولا يَبْعدَنْكَ اللّه يا توبَ والتقت
عليكَ الغوادي المدجناتُ السهواهِلُ

ومع كل ما أصابها من حزن وكمد لفقد حبيبها كانت تعيش حياتها، ومع كل هذا الحزن الدفين بداخلها لذي كان يعتصرها لم تزهد في الحياة، بل كانت دائمةَ الضحك والابتسامة، أما من داخلها فكانت تحترق حباً وحزناً وتعتصر ألماً وتنفث الأشعار الحارقة، ومع كل ذلك كانت تذهب إلى الولاة والحكام لتجتمع بهم وتقضي حاجات قومها، ووفدت مرة على الخليفة عبد الملك بن مروان بدمشق، فأحب أن يُمازحها أمام زوجته عاتكة، وكانت في ذلك الوقت قد جاوزت سن الشباب، فقال لها: يا ليلى ما الذي رأى فيكِ توبةُ حتى أحبك؟ فقالت: رأى فيَّ ما رأى الناسُ فيك حين ولَّوك الخلافة، وحاورها طويلاً في أمرها، وعندما حاورتها زوجتُه عاتكة أغضبتها فخرجت وهي تقول:

ستحمِلُني ورَحلي ذاتُ رَحْلٍ
عليها بنتُ آباءٍ كِرامِ
إذا جعَلَتْ سوادَ الشام دوني
وأغلقَ دونَها بابُ اللئامِ
فليسَ بعائدٍ أبداً إليهم
ذوو الحاجاتِ في غلَسِ الظَّلامِ
أعاتِكُ لو رأيتِ غواةَ بنّا
عزاءَ النفس عنكم واعتِزامي
إذا لعلمتِ واستيقنتِ أين
مُشيَّعَةٌ ولم تَرْعَني ذِمامي
أأجعلُ مثل توبةَ في نَداهُ
أبا الذُّبَّانِ فوهُ الدهرِ دامي
معاذَ اللّه ما عسَفَتْ برحلي
تَغُذُّ السيرَ للبلد التهامي
أقلتِ خليفةٌ فسِواهُ أحجى
بإمرتِهِ وأولى بالشَّآمِ

لـئـامُ المـلـكِ حــينَ تُـعـدُّ بَـكْـرٌ
ذَوو الأخطارِ والخُططِ الجِسام

لقاؤها مع الحجاج:

قدمت ليلى على الحجاج بن يوسف وعنده وجوه أصــحابه وأشرافهم فلما دنت سلمت، فقال لها الحجاج، ما أتى بك يا ليلى؟ قالت: إخــلاف النجوم، وقلة الغيــوم، وكلب البرد، وشــدة الجهد، وكنت لنا بعد الله الرفد، ثم قالت: أتأذن أيها الأمير؟ قال: نعم فأنشدته:

أحـجـاجُ إن الله أعـطـاكَ غـايـةً
يُـقـصِّر عـنـهـا مـن أراد مـداهـا
أحـجـاجُ لا يُـفْلَل سلاحُكَ إنما
المـنـايـا يـكفّ الله حـيـثُ تـراهـا
إذا وردَ الحجـاجُ أرضـاً مريضـةً
تجار يتَّبع أقصى دائها فشفاها
سـقـاهـا دمــاءَ المـارقـين وعـلَّـهـا
إذا جمَحت يـومـاً وضيف أذاهـا

إلى آخر الأبيات، ثم طلب منها أن تنشده بعض شــعر توبة فيها، فأنشــدته بعضاً منه فلما وصلت إلى قوله:

وكنتُ إذا ما جئتُ ليلى تبرقعت
فقد رابني منها الغَداة سُفُورها

قال الحجاج: يا ليلى ما رابه من سفورك؟ فقالت: ما رآني قط إلاَّ مترقعة، فأرســل إليَّ رســولاً أنه ملم بي، فنظر أهل الحي رسوله فاعدوا له وكمنوا ففطنت لذلك من أمرهم، فلما جاء ألقيت برقعي وسفرت، فأنكر ذلك.. فما زاد على التسلية وانصرف راجعاً.

فقال لها الحجــاج: للّه درك، فهل كانت بينكما ريبــة قط؟ فقالت: لا والذي أســأله صــلاحك، إلاَّ أني سألت أنه قال قولا فظنت أنه خضع لبعض الأمر، فقلت:

وذي حـاجـةٍ قُلنا لـه لا تَـبُحْ بها
فـلـيـس إلـيـهـا مـا حـيـيت سبيلُ
لنا صـاحبٌ لا ينبغي أن نخونه
وأنـتَ لأخـرى صـاحـبٌ وخـلـيلُ
تـخـالُـكَ تـهـوى غـيرَهـا فـكـأنـمـا
لهـا مِـن قَـطـنـهـا عـلـيـكَ دلـيـلُ

فمــا كلمني بعدها بشــيء من ذلك حتى فرق بيني وبينه الموت.

خبرها مع معاوية بن أبي سفيان:

خرجت إلى معاوية في حاجة فقالت له:

مـعـاوي لم أكـد آتـيـكَ تـهـوي
بـرَحـلـي نـحـو سـاحـتـكَ الـرَّكـابُ
تجـوبُ الأرضَ نـحـوكَ مـا تـأتَـى
إذا مـا الأكْـمُ قـنَّـعـهـا الـسَّـرابُ
وكـنـتَ المُـرتجـى وبـكَ اسـتـعـاذتْ
لِـتُـعـيـشَـهـا إذا بَـخِـلَ الـسَّـحـابُ

فقــال لها: ما حاجتك؟ قالت: ليس مثلي يطلــب إلى مثلــك حاجة فتخــير، فأعطاها خمســين من الإبــل، ثم قال لهــا: ويحك يا ليلــى! أكما يقول الناس كان توبة؟ فقالت: يا

أمير المؤمنين ليس كل الناس يقول حقاً، الناس شجرة بغي، يحسدون النعم حيث كانت، وعلى من كانت، كان توبة سبط البنان، حديد اللسان، شجي للأقران، كريم المخبر، عفيف المئزر، جميل المنظر، كان كما قلت ولم أبعد عن الحق فيه، ثم أنشدت قائلة:

بعيدُ المدى لا يبلغُ القومُ قعرَه
ألدّ مُلدٌّ يغلبُ الحقَ باطلُه
إذا حلَّ ركبٌ في ذُراه وظلِّه
ليمنَعهم مما تُخاف نوازلُه
حماهُم بنصلِ السيوفِ من كُلِّ فادح
يخافونَهُ حتى تموتَ خصائله

فقال لها معاوية: ويحك يا ليلى يزعم الناس أنه كان عاهراً فاجرا، فقالت من ساعتها مرتجلة:

معاذَ إلهي كان والله سَيِّدا
جَواداً على العلاَّت جَمّاً نوافلُه
أغرَّ خفاجِّياً يرى البُخل سُبَّةً
تحلَّبُ كفَّاه الندى وأناملُه
عفيفاً بعيدَ الهَمِّ صُلباً قناتُه
جميلاً مُحَيَّاه قليلاً غوائلُه
وقد علِمَ الجوعُ الذي باتَ سارياً
على الضيفِ والجيرانِ أنَّك قاتلُه
وأنكَ رَحْبَ الباعِ يا تَوْبَ بالقِرى
إذا ما لئيمُ القومِ ضاقتْ منازِلُه
وكأنَ إذا ما الضيفُ أرغى بَعيرَهُ
لديه أتاهُ نَيْلُهُ وفواصِلُه

فقال لها معاوية: ويحكِ ياليلى لقد جزتِ بتوبة قدره، فقالت: والله لو رأيته وخبرته لعلمت أني مقصرة في لغته، لا أبلغ كنه ما هو له أهل، فقال لها: في أي سني كان، فقالت:

أتتهُ المنايا حينَ تمَّ تمامُه
وأقصرَ عنه كلُّ قَرْنٍ يُصاوِلُه
وصار كليثِ الغابِ يَحمي عرينَهُ
وتَرضى به أشبالُه وحَلائلُهُ
عَطوفٌ حليمٌ حين يُطلَبُ حلْمَهُ
وسُمٌّ ذُعافٌ لا تُصاب مقاتلُه

فأمر لها بجائزة وقال: أي ما قلت فيه أشعر؟ فقالت: ما قلت شيئاً إلاَّ والذي فيه من خصال الخير أكثر، ولقد أجدتُ حين أقول:

جزى الله خيراً والجزاءُ بكفِّه
فتىً من عُقَيْلٍ سادَ غيرَ مكلّفِ
ينال عليات الأمور بهونة
إذا هي أعيت كل خرق مشرفِ
هو المِسْكُ بالأريْ الضّحاكي شِبَهُ
بدرياقة من خمر بيانَ قَرقفِ
فيا توبَ ما في العيشِ خيرٌ ولا ندىً
يُعَدُّ وقد أمسيتَ في تُربِ نَفْنَفِ

وهكذا كانت ليلى الأخيلية شاعرة العهد الإسلامي الأول، فلم يكن في شاعرات ذلك العهد من تضاهيها في البلاغة والقدرة على إرسال الشعر في أكثر أغراضه، على

سلاســة لا تكلف فيها ولا صناعة، ولا ركاكة ولا تعقيد، كما أنه لم يكن فيهن من تضــاهي ليلــى الأخيلية جرأة وطرافة قول ورقة غزل وعذوبة وشدة هجاء، إلاَّ ولادة بنت المستكفي شاعرة الأندلس.

شعر ليلى في الفخر:

قالت مفتخرة بقومها:

نحن الأخـايـلُ لا يـزالُ غلامُنا
حتى يَـدِبَّ على العَصا مذكورا
تبكي السيوفُ إذا فقدنَ أكفَّنا
جَـزَعـاً وتـلـقـانـا الـرِّفـاقُ بُـحـورا
ولنحنُ وثـقُ في صـدورِ نسائكم
منـكُم إذا بـكَر الـصُّراخُ بُـكـورا
لعمرك ما الهجراتُ أن يسقُطَ النوى
ولكـنَّـمـا الـهـجـرانُ غـيّـبَ الـقـبرُ

وقد رثت كثيراً غير توبة ومنهم عثمان ابن عفان قالت ترثيه:

أبعدَ عثمانَ ترجو الخيرَ أمتُه
وكـان آمـنَ من يمشي علـى ساقِ
خليفةُ الله أعطاهم وخوَّلهم
مـا كــانَ مـن ذهــبٍ جــمٍّ وأوراقِ
فلا تُكذِبُ بوعدِ اللهِ وأرضَ به
ولا تَـوَكَّـل علـى شـيءٍ بإشـفاقِ
ولا تـقـولَـنْ لشيءٍ سوفَ أفعلُه
قـد قـدر الله مـا كـلَّ امـرئٍ لاقِ

وفي الهجاء حلقت الشاعرة فيه وأبدعت فقــد هجت النابغة الجعــدي بعدما هجاها لأنها فضلت غيره عليه في شعرها، فقالت:

أنــابـغُ لم تـنـبـغْ ولم تـك أولا
وكنتَ صَنياً بين صدّيْن مَجْهَلا
أنـابـغُ إن تـنـبـغُ بـلـؤمِكَ لا تجد
للؤمكَ إلا وسْطَ جعدةَ مجعلا
تـعـيـرني داءً بـأمِّـك مـثـلُـه
وأيُّ نجـيـبٍ لا يُـقـال لـهُ هلا

وفاتها:

مرت ليلى في طريقها على قبر توبة حيث دفــن، فهاجت مشــاعرها واســتيقظ حبها وتوقــد، وكالعادة أرادت أن تمتع نظرها بقبر الحبيب، فوقفــت أمام القبر وســلمت عليه وبكت وازداد بكاؤها واســتعر أوار الحب في صدرها وكادت أن تخرج روحها من صدرها مع نفثاتها، وهل يوجد شــيء في الدنيا أروع والذ من نفثات الحب التي تخرج من صــدر عاشــق، وكانت بومة مختبئة بجانب القبر ولما ضرب الجمل بقدميه طارت البومة في وجهه فنفر الجمل وذعر وجــرى إلى أن وقعت من فوقه بجانب قبر توبة فماتت لحينها، فالوقوع كان على رأسها، فحفروا لها قبراً بجانب قبره وواروا جسدها إلى جانبه، وكأن القدر لم يرد لهما الاجتماع والمجاورة إلاَّ بعد الممات، بعد حرمان عاشاه طول حياتهما.

هذه هي ليلى الأخيلية التي توفيت سنة ٨٠ هـ/ ٧٠٠م، إنها نموذج رائع للحب والتضحية والوفاء والعفة، إنها المرأة العربية الأصل والمنشأ والحياة والممات، عربية بكل معنى الكلمة، إنها أحبت فعفت.

المصادر

١- شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام - بشير يموت - دار القلم العربي - ط ١ حلب ١٩٩٨.
٢- الموسوعة الإسلامية الميسرة /١٩٤٣ - ١٩٤٤.
٣- مجلة الجندي العدد ١٦٩/ آب ١٩٥٤ دراسة سلمان جابر.
٤- مجلة العربي العدد ١٢٨ - ١٩٦٩ دراسة محمد رجا حنفي عبد المتجلي.
٥- ديوان ليلى الأخيلية - جمعة خليل العطية - مصر
٦- ديوان ليلى الأخيلية - حققه د. واضح الصمد - دار البشائر - دمشق.

